السوريون في الولايات المتحدة

(٢)

﴿ترعة السويس والحرير﴾ الحلقة الاولى في سلسلة الحوادث التاريخية التي نتجت عنها الحركة السورية الحديثة الى اميركا هي فتح ترعة السويس سنة ١٨٦٩. وكانت الحرب الاهلية المعروفة « بحركة التين » قد الجأت قبل ذلك عدداً من السوريين ان يهاجروا الى مصر وكانت تلك الوثبة الاولى لبعضهم نحو العالم الجديد ولكن نتائج « الحركة » من حيث المهاجرة لم تكن مستمرة

بفتح ترعة السويس تأخرت تجارة سوريا البحرية واحكمت اسواق اوربا عرى الاتصال مع الشرق الاقصى فاخذ الحرير السوري وهو من اهم صادرات البلاد يشعر بمنافسة الحرير الياباني والصيني في اسواق ليون وبدأت اسعاره تهبط. وبتوالي الاعوام ازداد الضيق على الفلاح في سوريا. وحاول تجار الحرير السوري استفتاح سوق جديدة لحريرهم في اميركا ولكن على غير جدوى بدليل ما جاء في تقارير القناصل عن هذه المدة. ومنهم القنصل الاميركي العام بسنغر Bissinger في بيروت الذي رفع الى حكومته تقريراً عام ١٨٨٩ جاء فيه ان موسم الفيالج (الشرانق) لتلك السنة لم يزد على ٦٩٧ ٦٢٦ ٥ ليبرا وفيه ٢٥ في المئة نقص عن الموسم الاعتيادي. وعقب على ذلك بقوله « ان عدداً وافراً من التجار المشترين راجعوني مراراً في شأن تصدير حريرهم الى الولايات المتحدة رأساً وهم راغبون في ذلك رغبة شديدة كما بينت مراراً في تقاريري السابقة ». ويظهر ان الحالة بقيت على سوئها لاننا نرى في تقرير القنصل الاميركي دويل Doyle لسنة ١٨٩٧ ما نصهُ : « لم تزل تجارة الحرير في يد اصحاب المعامل الافرنسية وهؤلاء يدفعون ثمناً لا ربح من ورائهِ للمزارع »

ومما زاد في شقاء الفلاح ان داء الرمد (الفيلوكسره) اخذ حوالي سنة ١٨٩٠ يتفشى في الكروم ويفتك بنتاجها. فوقف الفلاح تجاه هذا العدو وقفة اعزل محروم من المعرفة الفنية العلمية لمحاربتهِ. ولما كانت موجة المهاجرة قد بلغت اشدها في تلك الاثناء لم يبقَ لدينا من شك بوجود علاقة سببية بينها وبين محل مواسم الحرير والكروم

﴿ العامل السياسي ﴾ من طالع ما يكتبهُ السوريون الاميركيون عن اسباب مهاجرتهم يُخيَّل اليهِ ان مرجعها بالاكثر ظلم الحكومة التركية وطلب الحرية والسلام تحت سماء يعيش المرء فيها حرًّا شريفاً مساوياً لكل احد آخر لا تعيقهُ عوائق سياسية عن التقدم ولا تعرقل مساعيهُ عراقيل اجتماعية عن الترقي. فجرائدهم كانت برمتها ناقمة على الحكومة التركية ورب يوم كان يجتمع فيهِ في مدينة نيويورك وحدها لا اقل من عشرين شخصاً منهم محكوم عليهم في الاستانة بالاعدام. وقد سألت كثيرين من السوريين عن اسباب مهاجرتهم فاجابوا بما مفادهُ ان العامل السياسي في اعتبارهم هو اهم العوامل. واليك انموذجاً منها وهو جواب طبيب « ليس من ينكر انّ حب الحرية هو الذي حمل السوريين على هجرة بلادهم ». ومما يستحق الذكر ان صورة اول عائلة سورية دخلت الولايات وهي عائلة عربلي رُسمت وفي يد ربها رقعة عليها هذه الآية « ها انا والاولاد سعدنا بالحرية »

ومما لهُ علاقة بالشكل السياسي امر الخدمة العسكرية فانها اوجدت عذراً لعدد وافر من المسلمين للهاجرة وبعد عام ١٩٠٩ للمسلمين والمسيحيين. وهاك تعريب تلغراف نشرتهُ جريدة العصر Sun النيويركية بتاريخ ٩ آذار (مارس) سنة ١٩١٣ من مراسلها في حيفا حيث قال « ما من باخرة في هذه الايام تترك الشواطىء السورية الى اميركا الشمالية او الجنوبية الاّ وهي مشحونة بالمهاجرين واكثرهم مسيحيون فارون من الخدمة العسكرية »

﴿ العامل الديني ﴾ كون الاغلبية العظمى من المهاجرين السوريين مسيحيين برغم كون المسلمين في البلاد يزيدون على المسيحيين دليل كاف على ان للدين علاقة بالمهاجرة. بيد ان المسلمين اقل طموحاً الى السفر واشد تعلقاً بالبلاد. ويحمل معظم الكتبة من المهاجرين هذا العامل المحل الثاني بعد العامل السياسي ويذهبون الى ان التضييق على بعضهم بداعي معتقدهم تضييقاً بلغ في بعض الاحيان درجة الاضطهاد هو الذي حمل الكثيرين من مسيحيي سوريا على المهاجرة. على اننا من القائلين بتقديم العامل الاقتصادي يتلوه السياسي فالديني تلك هي العوامل الرئيسية الثلاثة

﴿ تأثير التلم ﴾ ولا يخفى ان هنالك عوامل اخرى ثانوية مساعدة لا بد من اعتبارها واولها الارشادات والمشوقات التي ما فتىء السابقون من المهاجرين يقدمونها الى التابعين إما كتابة او مشافهة لدى اوبتهم لزيارة البلاد. فانتشرت

في طول البلاد وعرضها اقاصيص خرافية عن ثروة العالم الجديد وسهولة تحصيلها وتبادر الى ذهن العامة عندئذٍ ان ارض اميركا مفروشة بالذهب ولا اكثر للراغب من ان يفتح يديه ويقحف ما استطاع . ولم يقتصر المهاجرون الاولون على الاطناب بوفرة موارد البلاد المادية بل تطرّقوا الى الثناء على معالم العمران فيها والاعجاب بتمدنيها وروحها والمبالغة بكثرة فرص التقدم فيها على ضد ما فعلهُ مهاجرو الروس مثلاً الذين عادوا الى بلادهم وكلهم السنة تقبح الاميركان وتستهجن مؤسساتهم وطرق تصرّفهم الامر الذي لم يغرب عن الحاظ اللجنة الاميركية التي ارسلها الرئيس ولسن عام ١٩١٩ الى سوريا لاستطلاع رغبة الاهلين من حيث الانتداب ولقد نوّهت اللجنة بذلك في عرض تقريرها

اما المهاجرون الذين لم يعودوا الى البلاد فانهم بعثوا بدراهمهم اليها وانفقوها بالاكثر على بناء المنازل الفخمة المستوفة بالتقريد فكأنهم بذلك كتبوا على حائط كل بناء اعلاناً صامتاً يذيع اسم اميركا بين الملإ ويترنم بمجد ثروتها . واليك خلاصة ما لاحظهُ مراسل جريدة اميركية رافق لجنة المهاجرة لدرس الاحوال في تركيا سنة ١٩٠٧ قال : « معدل ما يرسلهُ المهاجر السوري الى بلادهِ يزيد عما يرسلهُ كل مهاجر آخر . وانك لترى بين بيروت ودمشق بيوتاً مشيدة بمال اميركا اكثر مما تراهُ في فسحة من الارض في ايطاليا حجمها خمسة اضعاف هذه . ومما يدل على قوة تأثير هذا العامل ان خمسة وتسعين في المئة من الذين دخلوا الولايات في سنتي ١٩٠٨ و١٩٠٩ صرّحوا لدى استجوابهم حين دخولهم انهم آتون للالتحاق باقارب لهم او اصدقاء[١] »

﴿ المسفّرون وعملاء البواخر ﴾ بعد ان ابتدأت حركة المهاجرة واخذت تتعاظم نشأت فئة من المتمولين لها مصلحة شخصية في استمرار الحركة وانتشارها وهي فئة مسلفي الدراهم الذين اخذوا يقرضون طالب السفر اجرة سفره (الناولون) ويتقاضونهُ ربا ووكلاء البواخر الذين جعلوا دأبهم تحريض الاهلين على السفر واصبح في العقد الاول من القرن الحاضر منظر هؤلاء المدينين والوكلاء وهم يجولون من قرية الى اخرى في لبنان على ظهور الحمير يعرون الضياع من البقية الباقية من بنيها منظراً مألوفاً . على ان هذا العامل كان من العوامل المهيجة للمهاجرة

(١) "Report of the Immigration Commission" جلد ١٢ ص ٥٩

والمسهلة لها لا من العوامل التي اوجدتها

﴿ تأثير المبشرين ﴾ ويجب ان لا يغرب عن بالنا ان للمبشرين الانكليز والاميركيين والسياح المتكلمين بالانكليزية يداً في تشويق الاهلين الى الاطلاع على المدنية الغربية وبالتالي الى السفر بقصد التمتع ببركاتها ومحاسنها وذلك بنشرهم معرفة اللغة الانكليزية وتلقينهم الناشئة مبادىء الجغرافية والتاريخ واسرار ترقي الامم الانكلوسكسونية . فهم وان لم يكونوا من مسببي الحركة الا انهم بلا مراء كانوا عاملاً قوياً في تحويل وجهتها نحو الشواطىء الاميركية الشمالية واغا فعلوا ذلك عن غير قصد منهم لاننا نعلم ان سياسة المبشرين كانت دائماً تثبيط عزائم مريدي السفر ومحاولة اقناعهم بالتربص حيث هم

ولدى التحقيق يتبين ان عدداً ليس بالقليل من الشبان في الولايات المتحدة هم من الذين درسوا في المدارس الاميركية والانكليزية في سوريا وفلسطين . واليك نبذة من تصريح وجيه سوري في نيويورك لمحرر مجلة الاندبندنت (٢) يمكن اتخاذهُ انموذجاً من اختبار كثيرين غيره قال : « وكان على حائط غرفة معلمي (في المدرسة الاميركية في لبنان) صور شتى تمثل مناظر مدن وشوارع اميركية وكنت اسمع منهُ عن التلفون والتلغراف والسكك الحديدية . فشاقني الوصف الى الوقوف على حقيقتها وللحال تجلى لي ان في غير سوريا بلاداً عظيمة صالحة للسكنى وانهُ ربما كان من عمل اعملهُ فيها افضل من صيروري راهباً »

والذي جعل انطون البشعلاني يطوّح بنفسهِ الى ما وراء البحار الى العالم الجديد بعد وقوع النفرة بينهُ وبين والدتهِ انما هو كونهُ كان قد سبق فتعرّف ببعض السياح الذين يؤمون سنوياً الاراضي المقدسة واحكم معهم عرى الصداقة

وبرغم هذه الوسائل الاصطناعية لتكثير المهاجرين يجب ان لا ننسى انهُ قلّ من السوريين في اميركا من عمد الى الذرائع التي عمد اليها الايطاليان اولاً لجلب الغملة للسكك الحديدية واليونان بعدهم لصبغ الاحذية وبيع الازهار كأن يقدّم الواحد ناولونا لطالب السفر ثم يستخدمهُ كرقيق مدة اقامتهِ في اميركا يطعمهُ ويكسوهُ ولا يعطيهِ اجرة مما يعرف بالنظام البادروني (Padrone System) وهو محظور بموجب شرائع الولايات المتحدة

(٢) (Independent) عدد ٣٠ يناير سنة ١٩٠٣

﴿مجمل العوامل﴾ وعلى الجملة فالاسباب التي قرّرت امر مهاجرة السوريين الى الولايات هي على نوعين عوامل خارجية وبواعث نفسية. فالبواعث النفسية الوجدانية يمكن حصرها بقولنا هي رغبة المرء في تحسين حالته ولا فرق بين ان يكون التحسين ماديًا او ادبيًا حقيقيًا او موهومًا. والعوامل الخارجية إما دافعة مركزها في البلاد المهجور منها او جاذبة ومركزها في البلاد المهاجر اليها كتشويقات السابقين من المهاجرين والمبشرين والسياح. اما العوامل الدافعة فرئيسية وهي اقتصادية وسياسية ودينية او ثانوية وقوامها المسلفون وعملاء البواخر كما يتبين من الجدول ادناه

علل المهاجرة
- عوامل خارجية
  - دافعة
    - رئيسية
      - اقتصادية
      - سياسية
      - دينية
    - ثانوية
      - المسلفون
      - وكلاء البواخر
  - جاذبة
    - رسائل المهاجرين
    - المبشرون
    - السياح
- بواعث نفسية: الرغبة في تغيير الحال الى ما هو احسن

﴿مميزاتها﴾ تختلف الهجرة السورية عن غيرها من الهجرات الى الولايات في انها جزء من كل لا كل قائم بنفسه. فالصيدونيون الاقدمون (الفينيقيون) هم اول سوريين هاجروا وكانت مستعمرات السوريين التجارية في القرون الوسطى ترصع خارطة اوربا [٣] وما زالوا على ذلك من التجوال والتنقل الى يومنا الحاضر.

(٣) راجع ما كتبناه عن مهاجرة السوريين ومستعمراتهم في القرون الوسطى في عددي آب (اغسطس) وايلول (سبتمبر) من مقتطف سنة ١٩١٧ - وبعنوان «تجار جنوى السوريين في القرن الثاني عشر» في عددي آب وايلول من المجلة التجارية السورية الاميركية لسنة ١٩٢٠.

ومن مميزاتها انها ليست محصورة في كونها هجرة اقتصادية كما هي الحال في معظم الهجرات بل عليها صبغة دينية سياسية وبذلك تجانس الهجرة اليهودية من روسيا واوربا الوسطى الى اميركا

ومن خصائصها انها ليست مقتصرة على الرجال بل هي هجرة عامة تتناول النساء والاولاد كما يتضح من مراجعة تقارير لجنة المهاجرة (٤) وفيها ان ٦٣٥ ٣٨ من الـ ٩٠٩ ٥٦ من السوريين الذين دخلوا الولايات من سنة ١٨٩٩ الى سنة ١٩١٠ اي ٦٧٥٩ في المئة كانوا ذكوراً و ٢٧٤ ١٨ اي ٣٢٦١ في المئة اناثاً. بينما نرى من المهاجرين الارمن في المدة نفسها ٢٣٦٥ في المئة اناثاً. ومن البلغار والصرب ٤٩٣ في المئة. ومن اليونان ٤٩٩ في المئة ومن الاسبان ١٧٦٢ في المئة والمعدل من كل الامم التي دخلت الولايات ٣٠٦٥ في المئة اناثاً. ولولا ان الالف درزي والثمانية آلاف مسلم من المهاجرين السوريين لم يرافقهم سوى عدد قليل من النساء يعد على الاصابع لكان معدل الاناث من السوريين يزيد كثيراً عما بلغ من الزيادة فوق معدل المجموع

ومن هذا يتضح ان المهاجرة السورية هي مهاجرة عائلية مقصود بها الاستيطان الدائم في الولايات المتحدة بخلاف المشهور عنها بين الاميركيين والسوريين انفسهم. نعم انها في اول اطوارها كانت مقتصرة على الشبان الذين رحلوا ولا همّ لهم سوى ادخار المال والرجوع به الى الوطن القديم ولكن هذه الفكرة زالت بتوالي الاعوام لاسيما بعد ان ادرك السوري المهاجر ان للمرأة في الحرفة التي يتعاطاها في الغالب وهي البيع في البيوت قيمة اقتصادية كبيرة لانها يهون عليها طرق الابواب ودخول المنازل وارضاء النساء. وما لبث ان اكتشف هذه الحقيقة حتى اخذ يطلب زوجته او والدته او شقيقته وبذلك انقطع امل الرجعة على كثيرين من الرجال

ولا يخفى ما في مهاجرة المرأة من حل كثير من المشاكل الجنسية التي كانت تعترض المهاجرين الاولين لاسيما وان السوريين ابداً يؤثرون الزواج ببنات جنسهم. ولقد ذكرني لي الصيف الفائت صديق ركب باخرة يونانية من اليونان الى نيويورك ان معظم الركاب معه كانوا بنات يونانيات ذاهبات عن يد عميل ليتزوجن بفتيان من اليونان المقيمين في الولايات والذين لم يرين منهم قبلاً سوى صورهم الفوتغرافية

ستأتي البقية فيليب حتي

(٤) (Reports of Immigration Commision) مجلد ١ من صفحة ٩٧